

الدِّيانات الإبراهيمية من الاختلاف إلى الائتلاف

■ رضوان السيد

1 - دعوة الوحدة والإنكار

ما عُرفت تسمية «الدِّيانات الإبراهيمية» إلا في خمسينات القرن العشرين، وكان الدُّعاة إليها بعض اللاهوتيين الكاثوليك المنفتحين. أما الذي دعاهم لذلك فهو التحدي الإسلامي بالانتساب إلى إبراهيم شأن اليهود والمسيحيين. ولأنّ التناكر بين «أهل الكتاب» بحسب تعبير القرآن¹ - في هذه المسألة بالذات كان لا يزال قائماً منذ بزوغ المسيحية؛ فإنّ الطرفين المتنازعين ما كانا على استعداد - وكلٌّ على حدة - للاعتراف بانسواء الإسلام تحت اللواء الإبراهيمي. بيّد أنّ هذه الإبراهيمية - رغم النزاع حولها - بلغت ذروة معتبرة في مجمع الفاتيكان الثاني (1962 - 1965)؛ حيث بادر الكاثوليك إلى دعوة اليهود والمسلمين للقاء تحت لواء الإبراهيمية الظاهرة لدى أتباع الديانات الثلاث.

1 - سورة البقرة: 113: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الصيغة الأولى، قال لهم القرآن الكريم: سورة المائدة: 68: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَازِلْتُمْ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾. إن أتباع التوراة - من جانب اليهود - والإنجيل - من جانب المسيحيين - كفيلٌ بإيصال كلٍ منهم إلى روح الإبراهيمية. ولو فعلوا ذلك لانفتحوا أيضاً على الدعوة الجديدة، وقبلوا بانضمامها إليهم؛ لكنهم حتى الآن شديدي الخلاف فيما بينهم، وشديدي الاستعصاء على الرسالة الجديدة من ضمن الدين الواحد: دين إبراهيم.

خاطب القرآن أهل الكتاب من الفريقين بالصيغتين: صيغة العمل بالإبراهيمية فعلاً، وهي الظاهرة في كتبهم المقدسة، وصيغة الدعوة إلى إعلان مشترك يعتمد الأُسُس الإبراهيمية فيكون عودةً للتوافق واللقاء.

أما الصيغة الثانية، فهي صيغة الدعوة إلى إعلانٍ مشترك يتجاوز الاختلافات، ويؤكد على الأُسُس والأركان فيكون عودةً للتوافق واللقاء: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64].

الآية تخاطبهم بأنهم أهل الكتاب، ومن ثم فينبغي أن يكونوا الأدرى بطريق الهدى والحق.

ولذلك، ولتجاوز الجدالات حول إعلانات الإيمان المختلفة؛ تعالوا إلى هذه الأُسُس الثلاثة، وهي في الحقيقة أساس واحد؛ هو الكلمة سواء أو المستقيمة التي لا عوج فيها: عبادة الله الواحد، وعدم اتخاذ شركاء له عبادةً أو نفعاً أو ضرراً، والتساوي والسواسية وعدم الترتب أو التريب لأحد، بحيث نلتقي على قدم المساواة التي يصنعها الإيمان الواحد، ومقولة الدين الواحد.

وما استجاب فريقاً أهل الكتاب لاستراتيجية الإسلام: الدين الواحد في ظل الصيغة الإبراهيمية لدين الفطرة التي لا تزال شواهداً حيّة وقائمة في بيت المقدس، وفي البيت الحرام بمكة. وإنما الذي ساد ولعدة قرون



جدالاتٌ طويلةٌ، وبخاصةٍ بين متكلمي الإسلام، ولاهوتيي المسيحية البيزنطية والعربية واللاتينية.

2- وقائع النزاع العقدي الطويل:

ذكر القرآن الكريم وقائع التنازع مع فريقَي أهل الكتاب. أما اليهود فالمشكلة معهم إقبالهم الدعوة الإبراهيمية التوحيدية عليهم، ورفض الدعوتين الجديدتين: المسيحية والإسلامية. وهذا إضافة إلى التحريف الذي أدخلوه في الدين، بحيث إنهم يرون أنه لا نبوة ولا كتاب إلا ما قالوا به هم، وانتسب إليهم؛ بما في ذلك الانفراد بأنهم أولياء الله وأحباؤه. لكنهم في القرنين السابع والثامن للميلاد كانوا منكمشين على أنفسهم، ومفترقين إلى جماعاتٍ لا تتلاقى. وفي تلك الفترة ظهر القراءون الذين أرادوا استحداث تأويل جديدٍ للتوراة وللكتابات الأخرى، متأثرين في ذلك بما كان يحدث داخل المسيحية؛ بل ومصدقين أنّ الإسلام ليس إلا انشقاقاً في المسيحية أو فرقة جديدة فيها إضافةً للفِرَق الكثيرة الأخرى قبل الإسلام وبعده.

وأما المسيحيون بفرقهم الثلاث الرئيسية (الملكية واليعقوبية والنسطورية) عشية الإسلام؛ فإنهم رأوا أنّ الإسلام - أو كما سمّوه: الهاجرية (ويقال: إنّ اليهود هم الذين أطلقوا التسمية، وأخذها المسيحيون إلى جانب مفرد: السرازانيين) - إنما هو انشقاقٌ أو هرطقةٌ قام بها الجنس العربي أو الإثنية العربية لاستبدال المسيحية السائدة، أو بالأحرى ليحولوا دون استمرار المسيحية في الانتشار في أوساط العرب. وما أنكر بعضهم (السريان من بينهم) أنّ المسلمين - استناداً إلى المنطق القرآني - إنما يطلبون الشراكة في الميراث الإبراهيمي. بيّد أنّ تلك القلة التي أدركت هذا الأمر ما تقبلته أيضاً؛ لأنّ الإسلام ما كان يريد الشراكة فحسب. بل كان يريد التصحيح أيضاً؛ والتصحيح الذي كان يطالب به القرآن شديد الحساسية؛ لأنه يتناول مفهوم الوحدانية وموقع المسيح في الدين. وهذا هو

المبدأ الأول في إعلان القرآن الذي عنوانه: الكلمة السواء، عبادة الله الواحد، وعدم الشرك والشريك من أي نوع في الألوهية والعبادة.

وعلى أي حال؛ هناك قصص كثيرة عن جدالات وحوارات بين المسيحيين والمسلمين في القرنين الأول والثاني للهجرة والثامن والتاسع للميلاد¹. وكما في القرآن، هناك تقارير عن العلاقات الإنسانية الطيبة بين الطرفين؛ لكن الخلاف العقدي لم يخف أو يتضاءل، بل تزايد. ويدل على ذلك كتابات يوحنا الدمشقي (- 749م) والتي وصلت مخطوطاتها²، وكذلك كتابات تيودور

**ذكر القرآن الكريم وقائع
التنازع مع فريق أهل
الكتاب. أما اليهود
فالمشكلة معهم إقفالهم
الدعوة الإبراهيمية
التوحيدية عليهم، ورفض
الدعوتين الجديدتين:
المسيحية والإسلامية.**

أبي قرة³ من العصر العباسي الأول. فالدمشقي (منصور بن سرجون) كان موظفاً في الإدارة المالية الأموية، ثم استقال وترهب، وذهب إلى دير مار توما بالقدس، وألف كثيراً في العقائد الأرثوذكسية، كما ألف كثيراً في الهرطقات أو البدع التي خرجت من وجهة نظره عن الدين الحق. وبين الهرطقات الأربعمئة وأخرها وأخطرها: الإسلام. والدمشقي يعرف القرآن؛ لأنه يورد آيات منتقاة منه لإثبات وجهة نظره، وهو يذهب إلى أن الإسلام لا ينتمي إلى الميراث

الإبراهيمي؛ لأنه يقول بالجبر، ويدعو للعنف. والطريف أن هاتين الدعويتين هما اللتان ذكرهما البابا السابق بنديكتوس في محاضراته الشهيرة بجامعة رغنسبورغ الألمانية عام 2006؛ فقد قال: إن الإسلام لا يقول بالعقل في الدين أو الإيمان، ويطلق سراح التعصب والتطرف العنيف. لكن لمن كان

1 - قارن: Hans Putman, L'église et L'islam sous Timothée I (780-823), 1975

2 - انظر: Daniel J. Sahas, John of Damascus on Islam, 1972

3 - قارن عن تيودور أبو قرة: Sidney H. Griffith, The Monasteries of Ninth-Century Palestine, 1992, p. 53-107؛ وانظر: أبو قرة والمؤمنون: المجادلة، تحقيق: الأب وفيق نصري اليسوعي، 2010؛ وعن الجدل بشكل عام، قارن بعبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع، 1986.

يكتب الدمشقي؟ فكتاباته كلها باليونانية، والعرب المسلمون لا يعرفونها. ولذلك كان هناك من الباحثين من قال: إنَّ المقصود كان تثبيت الإيمان لدى المسيحيين أمام هجمة الدين الجديد. بيدَ أنَّ اليونانية ما كانت لغة عامة للمسيحيين، بل هي لغة الكهنوت المسيحي. وهكذا فقد يكون المقصود من كتابات يوحنا الدمشقي إيضاح الدين المسيحي الصحيح لرجال الدين، وتعريفهم بالبدع لكي يجتنبوا، ولكي ينشروا المعلومات عنها في خطاباتهم وقداديسهم مع العامة، ويحذروهم من تلك البدع والهرطقات ومنها الإسلام. في ذلك الوقت - أي بين القرنين الأول والثاني للهجرة - حدث ما يُسَمَّى بأنَّ المسلمين أو على الأقلَّ بعض «متقفيهم»، كانوا يعرفون الكتابات المسيحية الجدالية ضد الإسلام. فقد ظهر نزاعٌ بين أولئك المتقفين (بلغة اليوم) في موضوعين: الإيمان ومقتضياته، والقضاء والقدر. أما مؤرِّخو علم الكلام الإسلامي فيرون هذين الموضوعين في أساس نشوء علم العقائد¹. وفي حين يرون أنَّ علاقة الإيمان (= التصديق) بالعمل كان نقاشاً إسلامياً داخلياً، بسبب آياتٍ في القرآن، وأحداثٍ في صدر الإسلام بين الصحابة؛ فإنَّ عدة مؤرِّخين يرون التنازع في القدر إثباتاً ونفيّاً إنما كان - في جزءٍ منه - متأثراً باتهام الكهنة المسيحيين للمسلمين بأنهم جبرية² وفي حين ينسبون إلى الحسن بن محمد بن الحنفية رسالةً في نفي ربط الإيمان بالعمل، ويقولون: إنَّ أبا حنيفة أيضاً كان مُرجئاً؛ فإنهم ينسبون إلى الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز وآخرين رسائل في الردِّ على القدرية؛ أي نفاة القدر³. والذين يُثبتون القدر يقولون: إنَّ نفاة إنما تأثروا بسوسن النصراني بالشام، والذي كان يتهم القرآن والمسلمين بالجبر⁴. أمَّا عبد الحميد بن

1 - قارن بعبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين (1996) صص 7 - 28، 97 - 120.

2 - قارن قديماً بـ Morris Seale, Muslim Theology: A Study of Origins with Reference to the Church Fathers (1964), 36-50. وللنظر الآن ألكسندر تريجر: أصول الكلام، في: المرجع في علم الكلام، 2018، صص 94 - 104.

3 - قارن بتريجر: أصول الكلام، مرجع سابق، صص 105 - 109؛ Van Ess, Anfänge Muslimischer Theologie (1977).

4 - ألكسندر تريجر، مرجع سابق، صص 99 - 100.

يحيى الكاتب بالديوان الأموي؛ فإنه يتهم نُفاة القدر، ليس بأنهم خوارج أو ثائرون على السلطة؛ بل بأنهم يريدون مشاركة الله سبحانه في عملية الخلق، بمعنى أنهم هم الذين يخلقون أفعالهم، وإلا فكيف يكونون مسؤولين عنها أمام الله والناس؟!¹.

وأياً تكن حقيقة الأمر، وهل الاتجاه القائل بحرية الإرادة والفعل للإنسان (من القدرية إلى المعتزلة) تأثر بالحملات الجدالية الأولى على الإسلام أو

يتهم عبد الحميد بن يحيى الكاتب بالديوان الأموي، نُفاة القدر، ليس بأنهم خوارج أو ثائرون على السلطة؛ بل بأنهم يريدون مشاركة الله سبحانه في عملية الخلق، بمعنى أنهم هم الذين يخلقون أفعالهم، وإلا فكيف يكونون مسؤولين عنها أمام الله والناس؟!.

هو اتجاه أصيل؛ فنحن نعلم أنه في زمن الجدالي المسيحي الثاني تيودور أبي قرّة؛ ظهر واصل بن عطاء الذي يُنسبُ إليه تأسيس الاعتزال؛ وكان من بين أعماله: كتابة رسائل في الرد على المسيحيين وغيرهم من الفرق المفارقة للإسلام والإبراهيمية، وإرسال دُعاة ممن درّبهم إلى الشام والمشرق والمغرب للدعوة إلى مذهبه في العدل والتزيه بين المسلمين، والدعوة إلى الإسلام بين أهل الديانات الأخرى².

وما بقي شيء من كتابات واصل بن عطاء وتلامذته في الجدل مع المسيحيين. بل بقيت

كتاباً مسيحيةً سريانية ويونانية من القرن التاسع الميلادي، تحكي عن جدالات بين الخليفة المهدي العباسي وأحد الأساقفة³، وأخرى تحكي عن جدال بين هاشميٍّ ومسيحي⁴. وبالطبع - وبحسب تلك الكتابات - فإنّ

1 - إحسان عباس: عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء (1988)، ص 207.

2 - قارن بفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: أيمن فؤاد سيّد (2017)، ص 5 - 9.

3 - قارن: Hans Putman, L'église et L'islam sous Timothée I (780-823), 1975.

4 - قارن برضوان السيد: التفكير الإسلامي في المسيحية، نظرة في وجه من وجوه تأمل المسلمين للمسيحية في العصور الوسطى؛ في: المسيحية والإسلام، مرايا متقابلة، جامعة البلمند، 2002، ص 12 - 13. وانظر تريجر، مرجع سابق، ص 90 وما بعدها.

المسيحيين كانوا هم الذين ينتصرون أو يصمدون. وفي تلك الجدالات ما كان موضوع الإبراهيمية بارزاً؛ بل - وبحسب تلك الكتابات - كان همُّ المسلمين دفع المسيحيين للإيمان بنبوة محمد ﷺ. وفي كل الأحوال؛ وسواء أضحّت تلك المرويات أم لا؛ فإنّ النقاش الجدالي انتقل من نقطةٍ إلى أخرى. في زمن القرآن والصحابة أراد المسلمون جمع أهل الديانات الثلاث تحت لواء الإبراهيمية التي حدّد القرآن مبادئها في إعلان (الكلمة السواء). وفي زمن العباسيين ركّز المسلمون على الآية القرآنية: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67]؛ فصار موضوع الجدل نبوة النبي ﷺ بوصفه الحامل الباقي مع أتباعه للميراث الإبراهيمي الصحيح.

3 - حقبة الردود:

إنّ الوقائع السالفة الذكر تشير إلى أنّ جنس أو نوع الردود الشاملة نشأ لدى رجال الدين المسيحيين. وقد كتب عادل تيودور خوري في أواخر الستينات من القرن الماضي أطروحته في السوربون عن الجدالات البيزنطية ضدّ الإسلام في القرن التاسع الميلادي¹. والردود أو المجادلات التي أوردها تستمد أصولها من كتابات يوحنا الدمشقي وتيودور أبي قرة؛ لكنها تمضي في تفصيلاتٍ لا تنتهي عن أصول الإسلام، والتي تجعل من غير الممكن انتماؤه إلى الميراث الإبراهيمي. ومن ضمن تلك التفصيلات قصص ورقة بن نوفل وبَحيرا والتناقضات داخل النصّ الإسلامي. إنّما في تلك الفترة بالذات أو إلى تلك الفترة تنتمي رسالة الجاحظ (- 252هـ) في الردّ على النصارى، ورسائل الكندي الفيلسوف والقاسم بن إبراهيم وعلي بن ربّين الطبري. وبعدها تأتي كتابات أبي عيسى الوراق في الردّ على الفرق المسيحية الثلاث². ومع أنّ

1 - Adel Théodore Khoury, Les théologiens byzantins et l'islam, 1969.

2 - هناك نشرات لأجزاء مختلفة من كتاب الوراق في الرد على الثلاث فرق من النصارى، لكننا نملك الآن نشرَةً شاملةً مع مقدمة دراسيّة طويلة لنادين عباس: نظرية التوحيد والتثليث الفلسفية عند يحيى بن عدي في كتابه «الرد على الوراق»، 2014.

النقد القرآني للمسيحية لا يزال بارزاً في الردود؛ فهناك تناوُلٌ لموضوعاتٍ أُخرى مستمّدة من آراء وعقائد الفِرَق المعاصرة وليس لها نظائر في القرآن. والظاهر أنّ المعتزلة هم الذين بدأوا هذه الردود، ثم تبعهم سائر الذين تعاطوا أو شدّوا شيئاً من علم الكلام، فالمفكرون المسيحيون كانوا يعرفون المنطق الأرسطي ومصطلحاته، والمعتزلة جاءوا بعدهم مباشرةً في معرفة المنطق واستعماله في بناء القضايا والمداخل.

يتضمن الردُّ الشامل هذا أربع موضوعات رئيسية: المسائل المتعلقة بطبيعة المسيح وأسرار تلك الطبيعة بحسب الفِرَق المسيحية المتصارعة

حولها. والمسائل المتعلقة بالأقانيم، وأنها ليست هي الصفات التي عرفها علم التوحيد الإسلامي. والمسائل المتعلقة برواية الكتب المقدّسة وبخاصة الأناجيل. والمسائل المتعلقة بالحياة الدينية ونظام الكهنوت لدى المسيحيين. وفي نظر المسلمين كاتب الردود؛ فإنّ ذلك كلّه يشي بالخروج على الوحدانيّة، وعلى المنطق السليم، وعلى طبيعة الإنسان التي تأبى تلك الأسطورة المعقّدة بوصفها ديناً¹.

وما قصّر المفكرون المسيحيون في ردودهم

على الدعاوى من جهة، وانتقادهم لتعاليم القرآن، ولطرائق جمعه ونقله، وبشيءٍ من الحذر: انتقاد جبروت دولة الإسلام، واختلاط الدين بالسلطة في الشرعنة والتسويغ (في ردّ يحيى بن عدي على الوراق مثلاً)². وقد كانوا حذرين بالطبع بشأن الوحي والنبوة؛ لكنّ أقصى ما كان أحدهم مستعداً للتنازل من خلاله للمسلمين هو القول: إنّ محمداً سار في طريق الأنبياء³.

1 - قارن برضوان السيد: التفكير الإسلامي في المسيحية، مرجع سابق، صص 13 - 22.

2 - قارن بنادين عباس: نظرية التوحيد والتثليث الفلسفية؛ مرجع سابق، صص 193 - 194.

3 - الأب سمير خليل: التراث العربي المسيحي القديم والإسلام؛ في: المسيحية والإسلام، مراها متبادلة (مرجع سابق، 2002)، صص 31 - 38.

إنّ النقاش الجدالي انتقل من نقطةٍ إلى أخرى. في زمن القرآن والصحابة أراد المسلمون جمع أهل الديانات الثلاث تحت لواء الإبراهيمية التي حدّد القرآن مبادئها في إعلان (الكلمة السواء).

وعلى أي حال - وكما هو واضح - فقد ظلَّ الطابعُ الغالب على ردودهم الدفاعَ دون الهجوم.

وطوال حوالى الثمانمئة عام ما خبا هذا الجدل ولا تراجع. وهناك من يزعم أنَّ هؤلاء العلماء من الطرفين كانوا مؤدَّبين في التعامل بعضهم مع بعض في المجالس العلمية التي كانت تنعقد في القرنين الرابع والخامس للهجرة. يبيدُ أنَّ هذا التسامح إنَّ كان بالفعل، ما كان له أثرٌ في كتاباتهم. إنما بخلاف القرن الأول؛ فقد غلبت على الردود المسيحية صبغة الدفاع باستثناءاتٍ بالطبع. ولا ندري ماذا كان تأثير ثقافة النقائض هذه على الحياة المشتركة بين الطرفين في المدن والبلدات؛ لكنَّ الأب فييه¹ - في دراسته المعروفة عن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في العصور الوسطى - يرى أنه كانت هناك عبر التاريخ أربع موجاتٍ من الاضطهاد تعرض لها المسيحيون عامةً ورجال دين وتجاراً. وكانت السلطات تتدخل في العادة لفصل بين الطرفين، لكنْ بعد أن يكون الخراب قد شمل الأحياء المسيحية. ولا تزال الذاكرة المسيحية تحتفظ بأهوال ما جرى للمسيحيين بدمشق عام 1860 حين أوى آلافاً منهم الأمير عبد القادر الجزائري في داره، وقد كان هو نفسه لاجئاً بدمشق بعد أن نفاه الفرنسيون الذين استعمروا الجزائر إليها!

4 - التحول في زمن الاستعمار:

ظلَّ الدفاع عن المشترك الإبراهيمي غائباً في ثقافة الطرفين في زمن الاستعمار في المائتي عام الأخيرة؛ فقد ظلَّ كثيرٌ من مثقفي المسلمين - حتى أولئك الذين عرفوا الثقافة الغربية العلمانية - يرون أن الاستعمار يحمل عرقاً مسيحياً قاهراً، ويشجّع التبشير. وهكذا فإنَّ الاستيلاء الغربي على بلدان المشرق الإسلامي دفع من جديد ثقافة الردود إلى الازدهار. فالذي تغيَّر ليس الممارسة الجدالية المستمرة من الطرفين أو الأطراف (لأنَّ المبشرين الغربيين البروتستانت والكاثوليك شاركوا بقوة في الجدالات)، بل

1 - الأب فييه: المسيحيون في العصر العباسي (1979).

الروح الدافع. فكما كان بعض المجادلين المسلمين في العصور الوسطى يسوقون قوة الدولة الإسلامية من ضمن أدلة صحة الإسلام؛ فإنه في زمن الاستعمار صار بعض المجادلين الغربيين يسوقون التقدم الغربي دليلاً على صحة المسيحية وانتصارها على الإسلام المتراجع أمامها. لقد ذُكرت ظروف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بظروف الحروب الصليبية الوسيطة، والتي زادت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين سوءاً. ولدينا لهذه الظواهر السيئة نموذجان: الجدل الذي دار بين المبشر بفاندر ورحمة الله الهندي بلاهور عام 1854¹؛ والذي ظهرت حول نتائجه ومن انتصر فيه

عدة كتب - ونموذج الجدل بشأن إنجيل برنابا المنحول، والذي تُرجم إلى الإنجليزية والعربية، واستخدمه المجادلون المسلمون بكثافة لإثبات زيف المسيحية السائدة، وأنّ إنجيل برنابا - وهو اسمٌ لأحد حواربي المسيح - هو الذي يجلو الوجه الحقيقي للمسيحية كما يراه المسلمون²

في الجدل الجديد أو المتجدد (1850 - 1950) صار المسلمون الذين شدوا شيئاً من الثقافة الغربية رئيسين في الدفاع عن الإسلام، وخطوا ذلك بالكفاح ضد الاستعمار. أمّا من الجانب المسيحي؛ فإنّ بعض المستشرقين والمبشرين البروتستانت، فالكاثوليك هم الذين واجهوا

المجادلين باسم الإسلام. وفي النصف الأول من القرن العشرين وما بعده انضم إليهم مسيحيون من لبنان جمعوا بين المعرفة الشخصية والاستشراق، والتوجهات الأخرى المستمدة من الردود والنقائص البيزنطية والسريانية القديمة.

ظلّ الدفاع عن المشترك الإبراهيمي غائباً في ثقافة الطرفين في زمن الاستعمار في المائتي عام الأخيرة؛ فقد ظلّ كثيرٌ من مثقفي المسلمين - حتى أولئك الذين عرفوا الثقافة الغربية العلمانية - يرون أن الاستعمار يحمل عرقاً مسيحياً قاهراً، ويشجع التبشير.

1 - قارن عن جدالية رحمة الله مع القس K. Phander، في رضوان السيد: الفكر الإسلامي في المسيحية في الأزمنة الحديثة والمعاصرة؛ في: المسيحية والإسلام، مرايا متقابلة، مرجع سابق، 2002، صص 32 - 37.

2 - انظر عن إشكالية إنجيل برنابا: رضوان السيد، مرجع سابق، صص 39 - 41.



لكنّ تحولات زمن الاستعمار - كما أسهمت في زيادة حدة الجدل - فتحت من جهةٍ أخرى أبواباً وآفاقاً، أتت في البداية من خارج الثقافة المسيحية البروتستانتية والكاثوليكية، ثم دخلت إليها أو إليهما. أولى هذه الظواهر ظهور أطروحة الديانات العالمية أواخر القرن التاسع عشر. وهي أطروحة أنثروبولوجيين وسوسولوجيين وفلاسفة راديكاليين، ولاهوتيين ليبراليين، رأوا أنّ الظاهرة الدينية إنسانية وعامة. وأنّ هناك منظومات أخرى غير المسيحية واليهودية تتوافر فيها «شروط» كونها أدياناً؛ لوجود العناصر التي تتوافر في المسيحية فيها من جهة، ولأنّ الخلاص ليس حصرياً. ولأنّ المشكلة مع اليهودية كانت هائلةً وتاريخية، واحتاجت إلى تصحيح ومراجعةٍ بالبح؛ فإنّ الاضطرار لتغيير النظرة إلى اليهودية بوصفها واقعةً في أصل المسيحية - دفع مفكرين بروتستانت ثم كاثوليك وبعد فترة للتفكير في تغيير النظرة تجاه الديانات الآسيوية وتجاه الإسلام¹.

وكما سبق القول في بداية هذا المقال؛ فإنّ لاهوتيين كاثوليكاً ومستشرقين - (وفي طليعتهم ماسينيون) ممن عاشوا طويلاً بين المسلمين، ويعرفون التراث الديني الإسلامي جيداً - بدأوا يفكرون ويكتبون في إمكان تغيير الرؤية المسيحية التقليدية للدين الإسلامي. وفي حين رأى بعضهم أنّ هناك «حقائق مسيحية عُفلاً» في الإسلام، تجاوز بعضٌ آخر ذلك إلى «النظر في الاعتراف بالإسلام بوصفه ديناً مستقلاً، وينتمي في الوقت نفسه للعائلة الإبراهيمية مثل اليهودية». بينما رأى فريقٌ ثالثٌ أنه ينبغي على أي حال الخروج من ثقافة الردود والنقائض وثقافة التبشير².

5- من الحوار إلى الائتلاف؟

منذ مطالع الخمسينات من القرن الماضي انطلقت دعواتٌ للحوار مع المسلمين من جانب الكنائس البروتستانتية، ومن جانب مفكرين كاثوليك

1 - قارن: W. C. Smith, Towards a World Theology (1990); John Hick, God has Many Names (1980)
2 - قارن بطارق متري: الحوار المسيحي - الإسلامي في الواقع والرؤية؛ في مرايا متقابلة، مرجع سابق، صص 1 - 34.

ومستشرقين، وما كانت دوافع الكنائس البروتستانتية مستنرةً ومنفتحةً على مقولة الإيمان المشترك وحسب؛ بل كانت لها دوافع سياسية، تمثلت في نشوب الحرب الباردة بين الجبارين، وتحالف تلك الكنائس الوطنية مع بلدانها في عمليات الصراع على العالم، ومن ذلك عالم الإسلام، والشرق الأوسط بالذات. ولذلك فقد انعقدت منتديات الحوار الأولى في لبنان وباكستان بوصفها آنذاك من حلفاء الولايات المتحدة. وما حضرها من جانب المسلمين كباراً أو كثيرين، وحدثت فيها جدالاتٌ غير دينية مثل قضية فلسطين، وقضية كشمير، ومسائل مصارعة الاستعمار. لكن كانت لتلك المنتديات فائدة كثر الجليد، والتركيز على الاشتراك في الإيمان بالإله الواحد، والدوافع الأخلاقية الكبرى في السلام والعدالة.

لقد انعقدت منتديات الحوار الأولى في لبنان وباكستان بوصفها آنذاك من حلفاء الولايات المتحدة. وما حضرها من جانب المسلمين كباراً أو كثيرين، وحدثت فيها جدالاتٌ غير دينية مثل قضية فلسطين، وقضية كشمير، ومسائل مصارعة الاستعمار.

وفي هذه الأجواء الحوارية والتجاذبية في الوقت نفسه عادت الأطروحة الإبراهيمية للبروز من جانب مفكرين ومستشرقين كاثوليك كما سبق القول¹. حتى إذا كان مجمع الفاتيكان الثاني (1962 - 1965) - الذي أصدر وثائق في الاعتراف وفي التشارك الإبراهيمي مع اليهودية والإسلام - تحولت هذه الدعوات الفردية إلى عملٍ جماعي؛ بحيث اتجهت المؤسسة الكنسية الكاثوليكية، وبعض المؤسسات الكنسية البروتستانتية للتعاون مع الدول الإسلامية، والمؤسسات الدينية الإسلامية.

لقد مضت على هذه المساعي والمسارات زهاء الستين عاماً وأكثر. وصدرت مجلداتٌ ضخمةٌ تتضمن البيانات والإعلانات المشتركة. وصارت الأطروحة الإبراهيمية سائدةً في أكثر الخلفيات والمناقشات. وصار للحوار - بل للائتلاف - أنصاره والعاملون عليه من الكاثوليك والبروتستانت على

1 - قارن: Pontifical Council for Interreligious Dialogue, Recognize the Spiritual Bonds which Unite us: 16 years of Christian-Muslim Dialogue, Vatican City, 1994.



حدٍ سواء. وبرز من بين الصفوف لاهوتي كاثوليكي كبير هو هانز كينغ، مضى من الإبراهيمية إلى ما وراءها أو إلى أعماقها؛ لأنه في أطروحته العامة أدخل الديانات الآسيوية أيضاً. والأطروحة تقول: لا سلام في العالم إلا بالسلام بين الأديان. ولا سلام بين الأديان إلا بوجود أخلاق عالمية تتضمنها تلك الأديان. وتملك الديانات الإبراهيمية مهمة خاصة أو تكليفاً خاصاً في هذا السياق. وذلك بسبب كثرة معتقبيها من جهة، وأنها تمتلك بالفعل قيم إيمان مشترك، ومن ثمّ منظومة أخلاقية كبرى ومشاركة. وكما أصدر هانز كينغ قرابة المؤلفات العشرة بعد وثيقته في الأخلاق العالمية للأديان (1991)؛ فإنّ لاهوتيين كباراً مسيحيين وغير مسيحيين أقبلوا بعد كينغ على تأمل الإسلام بعيونٍ جديدة.

هل تحول الحوار الحميم والشفاف إلى ائتلاف كما رجا كينغ، ومن قبله ولفريد كانتويل سميث¹، ومن بعده تشارلز تايلور؟ ما حصل ذلك بعد؛ لعدة أسبابٍ بعضها لاهوتي، وبعضها ثقافي، بعضها سياسي واستراتيجي.

6 - العوائق والحوائل

1) مسألة حصرية الخلاص، والتي هناك تمسكٌ كبيرٌ بها في لاهوت الديانات الإبراهيمية بالذات، وقد حاول هانز كينغ تجاوزها بالطرح الأخلاقي؛ لكنّ الأمر لا يزال موضع تأمل من لاهوتيين بروتستانت وكاثوليك. وقد رأينا البابا السابق بنديكتوس يعود إلى عقائدية كلاسكية تذكّر بالجدالات من الطرفين. وقد جادله مسلمون كثيرون²؛ لكنّ أحداً من اللاهوتيين البروتستانت والكاثوليك لم يجادله أو يردّ عليه. وقد واجه

1 - قارن: W. C. Smith, The Meaning and End of Religion (1930)، حيث يعتبر الكاتب إنه ليست هناك فائدة من تحديد مفهوم للدين، مع أنّ الإنسان كان دائماً دينياً؛ وانظر القراءة النقدية للكتاب من

جانب طلال أسد في مجلة: History of Religion, vol. 40, no. 3 (2001)

2 - قارن بيبسي جابلي: الفكر المسيحي المعاصر والآخر، 2016، صص 185 - 247.

العقديون المسلمون الأمر بالرفض الكامل، دونما النظر في إمكانياتٍ أُخرى، أو عادوا إلى الأطروحة القديمة، والتي ترى أنه لا ضرورة للحوار في المسائل العقديّة، وعلى أي حال فإنّ إشكالية حصرية الخلاص أو حصرية النجاة تبقى مشكلةً بارزةً لدى المسلمين أيضاً.

(2) حصول حدثين هائلين؛ أحدهما ثقافي، وثانيهما استراتيجي، أو أنّ الثقافة تختلط بالاستراتيجية فيهما. الأول: أطروحة صدام الحضارات التي ألمح إليها برنارد لويس، وصرّح بها صامويل هنتغتون، وتبنّاها استراتيجيون كثيرون كما عارضها آخرون. وهي ترى أنّ حضارة الإسلام القائمة على الدين

«تملك تخوماً دميّة». والثاني: إغارة القاعدة على الولايات المتحدة عام 2001، وتفجّر ظواهر العنف باسم الإسلام خلال العقدين الأخيرين. وهي ظواهر تحمل كلها شعاراتٍ دينيّة، وتستند بمجملها إلى دوافع دينية فيما يقال. ومن يتابع المجالات الدينية والأكاديمية المختصة بالدين في الأعوام الأربعة الماضية؛ يشعر أنّ الإسلاموفوبيا ما دخلت العامة الأوروبيّة والأميريكيّة والهنديّة والبوذيّة فقط؛ بل دخلت اللاهوتيين والمفكرين أيضاً. وهذا أمرٌ لا أدري كيف سنخرج نحن المسلمين منه؛ لأنه كما تحول الإسلام إلى مشكلةٍ عالمية؛

فإنّ ظاهرة العنف في الدين أو باسم الدين تترك مفكرينا حيارى بين فاقدٍ للإيمان، وفاقدٍ للثقة، وفاقدٍ للقدرة على التفكير بالبدائل.

(3) افتقاد العلماء المسلمين والمؤسسات الدينية للمبادرة. وليس منذ الانفجار؛ بل منذ انطلاق الحوار في الخمسينات. ويرجع ذلك للافتقار إلى روح الاحتساب والتأهل والتأهيل، وعدم وجود القدرات، والخوف من الاتهام، أو الشك في المبادرات الغربية، أو مجرد الإحساس بالمرارة، ونقص الجرأة على الخروج منها. وما أقبل العلماء وأقبلت المؤسسات على التحدث إلى

من يتابع المجالات
الدينية والأكاديمية
المختصة بالدين في
الأعوام الأربعة الماضية؛
يشعر أنّ الإسلاموفوبيا ما
دخلت العامة الأوروبيّة
والأميريكيّة والهنديّة
والبوذيّة فقط؛ بل
دخلت اللاهوتيين
والمفكرين أيضاً.



الكنائس والأكاديميات حقاً إلا بعد أحداث الإرهاب الهائلة. وربما يكون في ذلك بعض الأمل إذا تتابع هذا النشاط مستقبلاً، وصار قناعة عميقة.

لقد أغفل المسلمون إلى حدٍ بعيدٍ الأطروحة الإبراهيمية للقرآن، وظنوا عندما ظهروا في العالم أنهم ما عادوا محتاجين لذلك؛ أي إلى التعارف والكلمة السواء مع اليهود والمسيحيين والبشر أجمعين، أو الشراكة معهم؛ لكنّ القرآن الكريم ما طرح ذلك من موقعٍ ظرفي أو ضعيف، بل من موقع القوة؛ لأنّ الدين واحد، ولأنهم هم الذين فارقوا الحنيفية الإبراهيمية، ولذلك فإنّ الالتزام بالإبراهيمية حقّ لنا وعلينا. فبحسب القرآن نحن - المسلمين - لا نستجدي الاشتراك والمشاركة؛ بل نؤمن بهما؛ لأنهما مقتضى «الكلمة السواء» التي ندعو العالم إليها، بل وندعو أنفسنا للعمل بمقتضاها: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. فلتكن لدينا الشجاعة - كما لدى بعض المفكرين الغربيين - للعودة إلى حمل دعوة القرآن من جديد؛ لتكون لنا حياة، وتكون حياة أفضل.